على قبر بتهوفن

« عزاء للبؤساء أن يعرفوا بائسا مثلهم استطاع بكل ما اوتى من قوة — وبرغم ما أقامته الطبيعة فى طريقه من عوائق — أن يرقى إلى مصاف رجال الفن ، بل الرجال فحسب ، الجديرين بالتقدير . »

بتهوفن فى « وصية هايلجنشتات » سنة ١٨٠٢

« خفف الوطء ، ما أظن إلا أنك تطرق أرضا مقدسة . صاح ! طال بك النوى ، وطوح بك الطواف حتى جاء بك أخيرا إلى الأرض التى تضم رفات لودفيج فون بتهوفن . »

بمثل هذه الكلمات ، أو فى الحالة الشعورية التى تعبر عنها هذه الجمل . اجتزت باب المدافن المركزية Zentralfriedhof بالحى الحادى عشر (زمرنج) من أحياء فينا ، ذات يوم من صيف ١٩٢٩ باحثا عن قبر بتهوفن . وإنى لأسير يمنة أو يسرة ، وأتقدم إلى الأمام أو أعود أدراجى مسترشدا بالكتاب الدليل فى يدى ، مجتازا معابر « رحبة السلام » . « أظنك عرفت طريقك أيها الطارق . فهذه المقبرة الفخمة ، مرفوعة على عمد من مرمر هى ولا شك . . . كلا . هذا قبر باشمهندس ما لبلدية فينا . ثم هنا قبر أسرة شيخ البقالين . أو هو وزير الدولة ذو الحول والطول ؟ وهنا . . . فا . . . يجنبا . . . وم الجهايمرات . . . مستشار ملكى » . أدور بين المدافن أطالع الأسماء فوق الأضرحة الكبرى ، أسماء أولئك المجهولين العظماء ، عاشوا بين سمع الناس وبصرهم لمحض مراكزهم فى الدولة أو فى التجارة والمال ، ثم هم يختفون فى التراب ، فى تراب التاريخ ، مهما بالغوا فى تزجيج حواجب رءوسهم وتزويق صدورها وأعجازها السلام عليكم يا أهل القبور ! وعلى ذكراكم العفاء أيها الحمقى ، يا أهل الغرور . عشرات الآلاف منكم ومن أشباهكم

يساوون أنملة شادى الانسانية الأكبر ، ومعتصر خمر الآلهة ، لودفيج فون بتهوفن .

« خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا . . . خفف الوطء ما أظن إلا أنك تطرق أرضا مقدسة . صاح ! ولكن أين القبر الذى عبرت فينا لأقف به لحظة ؟ يا أهل فينا ، الأحياء منكم والأموات ، هل من يدلنى على قبر الرجل العظيم ؟ »

وكلما عدت إلى الكتاب الدليل أشار دائما فى اتجاه القبر رفيع العماد . . . لباشمهندس بلدية فينا . ويحك يا كبير المهندسين ! ألا نفرغ من شأن هندستك وبلديتك اليوم ؟ ويح قبرك العالى يحجب الركن المادىُ والرحبة المقدسة حيث يرقد بتهوفن إلى جانب شوبرت ، إلى جانب برامز . هكذا أرادت فينا أن تجمع الرفات من هنا وهناك لتنشئ ما أسمته ركن الوسيقيين ، وهو ركن غير جدير بهم خلف ذلك الضريح الصلف الذى أقامه لنفسه باشمهندس البلدية . وإن عزت الرفات على أهل فينا ، لا عليهم ، فالمثال يقيم نصبا وتمثالا لذلك الطفل الالهى ، مدلل أهل عبقر ، فلفجانج أماديوس موزارت . دفن بمقابر الصدقة ذات يوم مطير لم يسمح للمشيعين بالسير إلا إلى باب القرافة . ولما عاد الأصدقاء بعد أسبوع يزورون المرحوم ، كان حفار القبور ذهب للقاء ربه فلم يستطيعوا أن يعرفوا قبر موزارت . من التراب أنت يا موزارت ، وإلى التراب تعود !

أما بتهوفن فقد صحت فينا ذات يوم من شهر مارس سنة ١٨٢٧ لتعلم بأن رجلها العبقرى مات وذهب عشرون ألفا من أهلها يشيعون جنازة لودفيج فون بتهوفن . ولو قدم كل منهم دانقا أو درهما للعبقرى فى أيامه الأخيرة ، لما احتاج إلى طلب المعونة من الجمعية الفلهارمونية فى لوندرة . ولا يضايق أهل فينا إلى اليوم ، وربما كان إلى غد وبعد غد ، إلا أن تذكرهم بأن الفلهارمونية اللندنية وحدها ، هى التى خفت إلى معونة بتهوفن فى عوزه ومرضه الأخير . ونحن لا ننسى لها تلك المكرمة ، وبتهوفن فى أحاديثه وخطاباته الأخيرة يريدنا أن نكرم دائما أريحية تلك الجماعة .

نقم أهل فينا على معنى التعريض بهم ، حين التجأ رجلهم العظيم إلى الجمعية الانجليزية ، فراحوا يلوثون سمعة خاصته بمناسبة سبعة أسهم متواضعة وجدت فى خزانة المتوفى كان يحرص عليها بتهوفن حرص البخيل ، لتكون

إرث ابن أخيه الضال . فكتب صديقه شندلر إلى موشيلس فى لوندرة يرجو « الدفاع عن شرف أصدقاء بتهوفن والجمعية الفلهارمونية بمعاقبة السفلة Kanaillen Volk . يجب على الجمعية الفلهارمونية أن تذيع معرفة لوندرة بأن الحفلة الكبرى التى عزفت فيها السمفونية التاسعة والقداس الحافل لأول مرة بفينا فى مايو ١٨٢٥ لم تجلب لبتهوفن غير ثلاثمائة فلورين من الورق بعد أن دفع كل المصاريف ، ومن ضمنها ألف فلورين لادارة المسرح ؛ وأن المشتركين لم يدفعوا دانقا واحدا لقاصيرهم ؛ وأن بتهوفن ، وقد دعا شخصيا أعضاء الأسرة الامبراطورية لم ير واحدا منهم يحضر الحفلة . وأنه لم يرسل واحد من البلاط فلسا الخ . . . كل هذا يجب أن يعرف ويذاع . إن فينا ظلت تعلم بمرض بتهوفن مدى شهرين ، فلم يفكر واحد من أهلها بحالته ولا بصعوباته المالية . ألم يكن من حقه فى هذه الظروف أن يطلب المساعدة؟ فوالله لو لم تبادر الفلهارمونية إلى معونته لمات بتهوفن ودفن مثل هايدن يشيعه خمسة عشر نفسا ! »

وقفت على ضريح بتهوفن لحظات أتلو اسمه على صفائح رسمه المرمرى تعلوه مسلة قصيرة حفر عليها رسم قيثار ، وأستعرض حياته من مسقط رأسه فى بون على نهر الراين سنة ١٧٧٠ حتى وفاته سنة ١٨٢٧ بضواحى فينا . لحظات فيها من المناجاة ما يعرفه كل من حج إلى قبر عزيز .

ولقد تعقبت آثار الموسيقى الجبار بمدينته ، فزرت بعض المنازل التى سكنها فى هايلجنشتات ونوسدورف ومنها ذلك المنزل المتواضع ، يصعد إلى مسكنه من فناء داخلى على سلم يغطيه البلاب ، حيث ألف سنة ١٨٠٣ سمفونية البطولة « الارويكا » . وقضيت الظهيرة وما بعدها أتمشى فى ذلك الركن من غابة فينا الذى يعرف اليوم باسم بتهوفنجانج ، والذى كان يرتاده وهو يفكر فى وضع ألحان سمفونيته الريفية « الباستورال » . ووقفت بتماثيله العديدة المقامة فى ميادين فينا ومتنزهاتها . وفى كل روحاتى وغدواتى تتجاوب ألحانه فى رأسى ، فيختلط لحن «السونات إلى كرويتزر» بنغمات السمفونيات التاسعة والسابعة والخامسة والسادسة ، ويتآلف كونشرتو الكمنجة بكونشرتو الامبراطور أو بأنغام الأباسيوناتا والكواتيور الرابع عشر .

ذلك لأن ألحان بتهوفن اتصلت بصميم حياتى الوجدانية والعاقلة اتصالا

غريبا . فكانت السمفونية السابعة أول ما سمعت من موسيقاه بل من الموسيقى السمفونية على الاطلاق ، والخامسة والسادسة أول ما فهمت ، والتاسعة أقصى ما ارتقت إليه روحى صعوداً إلى قمة المثالية ، فى جبال الفن الرفيع .

كنت أستمع ذات يوم إلى إذاعة عربية عن بتهوفن ، إذ حسبت — وليتنى ما حسبت — أن بلدى وأهل بلدى بدءوا يدركون من هو بتهوفن ، وما هى الموسيقى التى رفع من شأنها بتهوفن ، أو أن هناك على الأقل من بينهم من يبشر بموسيقى بتهوفن . وإذا صاحب الاذاعة « يمثل » حياة بتهوفن بتلك اللهجة المجوجة التى عودنا إياها ممثلو الطبقة الثالثة . . . . . والأولى ! لهجة يختلط فيها نوح النادبات بجعير الحشاشين وردح الرادحات . لقد « مثل » الأحمق بحياة بتهوفن ، دون أن يسمعنا ألحانه . إذ يبدو أن حياة الموسيقيين هى آخر ما وطدنا العزم على معرفته هنا . أو لعل التعاسة والشقاء ، والعويل والبكاء ، هى كل ما قدر لنا أن نسمع به فى حياة الموسيقيين . أما موسيقاهم فبيننا وبينها ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، بالذى أسكر ، والحمد لرب مقتدر ، وما إلى هذا من مفالك المفلوكين ونشيج المتسولين .

كانت حياة بتهوفن حياة شقاء وتعاسة حقا ، وكانت كبتا متواصلا لجميع عواطفه النبيلة تشرئب نحو الحب والصداقة والزواج والأبوة ، فتخدع فى حبها المرة تلو المرة ويعيش الرجل وحيدا شقيا . ثم يصاب فى سمعه فيجتوى المجتمعات ، وهو محب للاجتماع فى المدينة الأرستوقراطية . وأخيرا يتبنى ابن أخيه ، فتتبلور حول هذا التعس كل عواطف الأبوة ، ثم لا يلقى من ذلك المغامر النجس إلا السفه والنكران .

بيد أن ما ينساه الذين لا يفكرون بغير حياة بتهوفن ، أو ما يجهلونه فى الأغلب ، هو أن موسيقى بتهوفن ترتفع بصاحبها وسامعها إلى مجال من التهلل والفرح لم يصل إليه موسيقى من قبل ومن بعد . ولم يجد النقاد ما يصفون به السمفونية السابعة — « تمجيد الرقص » على حد تعبير ريشارد فاجنر — غير نسبتها إلى ديونيزوس إله النشوة المقدسة ، أصل المسرحيات الاغريقية ، فيقولون بأن الجذل الصادر عنها هو « فرح ديونيزياكى » .

ليس أبعد من بتهوفن عن ألحان الألم التى تبدو فى مثل السمفونية المؤثرة « الباتيتيك » لتشايكوفسكى . حتى المارش الجنائزى فى سمفونية بتهوفن الثالثة ،

أو فى سوناتة البيانو ، لحن يستوحى جلال الموت فى رجولة ، ويحزن للميت البطل حزن الأبطال على الأبطال . ومهما صدرت ألحان بتهوفن البطيئة — والحزن من صفات اللحن البطىء غالبا — عن آلام نفسية تؤثر فى سامعها تأثيرا بالغا ، فان السامع لا تنقبض نفسه كما تنقبض لسماع بعض ليليات شوبان المريض . أريد أن أنفى عن بتهوفن أية صفة من صفات الـ morbidezza الرومانتيكية . وإنما ترتفع موسيقاه الحزينة ارتفاعا يشبه فى كثير ما أتخيله عن الارتقاء إلى الأوج الصوفى . وألحان بتهوفن تنتهى دائما برنين السرور والانتصار . والصفة الغالبة عليها هى صراع بين المشاعر المتناقضة ، ينتهى دائما بانتصار الفنان بفنه على صغائر الدنيا ومتاعب الحياة . وهذا النصر نتيجة اعتصار رجل الفن لنفسه ، وتقطير روحه تقطيرا يرتفع بها عن الدنايا ، ويستخرج من علقم الحياة والتجاريب ، خلاصة الشهد الطيب والخمر العتقة .

أثر هذه الموسيقى فى سامعها ، وفيمن يوقعها ، لا يمكن أن يدانيه أثر موسيقى أخرى . ولقد تكلمت فى موضوع آخر عن النشوة التى أشعر بها وأنا خارج من قاعة الموسيقى السمفونية ، وجلها كان من أثر موسيقى بتهوفن . وأذكر هنا ، فيما أذكر ، أمسية بقاعات السوربون ، من تلك الأمسيات التى كان أوركستر الطلبة يجتمع فيها ليوقع شتى القطع السمفونية . والرئيس يوزع على أدراجنا موسيقى السمفونية الخامسة (دو مينور) . وإذا بذلك الأوركستر الغلبان الخائب ، المكون من ضعاف الهواة يهتز هزة رجل واحد ، ويسير فى إيقاع حركات السمفونية كلها من أولها إلى آخرها فى شبه نشوة علوية ، دون توقف أو تردد . وإذا بنا وبرئيسنا بعد آخر مازورة قد عرتنا دهشة بالغة ، فلا بد أن أمراً ما قد حدث حتى نوقع السمفونية بهذا المزاج وبمثل ذلك التوفيق .

الحقيقة أن السمفونية الخامسة من أقرب السمفونيات إلى نفوس عشاق الموسيقى . ولقد سمعتها عشرات المرات ، وأدركت تماما أثرها فى نفسى وفى نفس السامعين . ففى كل مرة أشعر بحدث جلل يمتلك على الأفئدة وعيها وإحساسها . وليس هذا شأن السامعين فى عصرنا وحده ، بل فى العصور الماضية أيضا ، وفى سنة ١٨٢٨ بالذات ، بعد مضى عام على وفاة بتهوفن . سرت فى جمهرة السامعين قشعريرة إجماعية على أثر إيقاع السمفونية الثالثة — لحن البطولة

اسما وفعلا — بقاعة كونسرفتوار باريس « كانت هزة الاعجاب بهذا الاتقان قد بلغ أقصى غاياته ، وهى الغاية التى تتعدى حدود الطاقة البشرية . . . لم تكن شبابات وكنجات تسمعها ، وإنما هو العالم يتحرك بكلياته . . وإنى لأسائل من شاطرونا هذا الشعور من السامعين : أكانت تلك الموسيقى من عمل البشر ؟ » قائل هذا هو الناقد والمؤرخ الموسيقى الكبير فيتس .

أما الموسيقيون فقد تردوا فى الغيظ والكمد ، أو صرعوا بين العجب والاعجاب . وأرتج على أستاذ برليوز فلم يحر قولا أول الأمر ، ثم عاد إلى منزله وود لو أنه لم يسمع . عاد كما يقول برليوز وهو لا يعرف مكان رأسه . ثم هو يثوب إلى رشده قليلا ويقول لتلميذه بلهجة جافيه : ليكن ما يكون ، يجب أن نتجنب تأليف مثل هذه الموسيقى

فيرد عليه الموسيقى الفرنسى العظيم برليوز بالجملة التى حفظها له التاريخ كما حفظ موسيقاه :

« اطمئن يا سيدى الأستاذ . لن يؤلف أحد كثيرا من مثل هذه الموسيقى ! »

وصف برليوز حفلة سنة ١٨٣٤ لإيقاع السمفونية الخامسة : « والناس حيارى أمام تلك الموسيقى الغلابة التى ينهض لها الجمهور منذ مطلع حركتها الختامية ، فيغطون بحماستهم على صوت الأوركستر . هذا إلى أن شعور الآلاتية بهذه الموسيقى كان يملك عليهم وعيهم امتلاكا ، والناس ما بين ضاحك وباك . . . ومدام ماليبران (المغنية الكبرى فى ذلك الوقت) يغمى عليها فى مقصورتها . . . وضابط من ضباط نابليون القدامى يرفع ذراعيه للسماء صائحا : هذا والله هو لامبراطور . . . إنه الامبراطور ! »

قال رومان رولان : « مثل هذه الموسيقى تشع سحرا خارج نطاق العقل . لأن ذلك الأرفيسى الذى ألفها كان ، من بين جميع فنانى الغرب الحديث ، أكثر الفنانين نشوة إلهية . كان فريسة القوى البدائية ، كان رجل الالهام والتصور الدفين فى أقوى ما يصل به الوحى من عنف التركيز . وإن قوة التركيز هذى هى أولى الصفات فى عبقرية بتهوفن ، بل هى الصفة الأساسية . . .

« وأيا كان اللحن ، أينما كانت اللحظة من لحظات اللحن ، صفحة منه أو جملة ، فانك تشعر بكيان الرجل يغوص فى بحار الفكر غوصا . . .

« وهو فى لحظات التجلى كان يبدو كمن أصيب بمس ، لأنه لم يعد يملك

نفسه ، وإنما هى الفكرة استحوذت عليه ، أينما وجد ، فى الطريق العام ، أو فى المتنزه ، أو بين الناس . فالعالم يتلاشى حوله إذ ينضوى على صور مخيلته ، يطارد الفكرة حتى يأخذ بتلابيبها فيلويها بين يديه ويحتضنها حتى ليتزج بها امتزاجا ، ثم هو لا يخرج عنها إلا وقد حولها إلى صور متعددة . . . ذلك ما يحس به السامع لموسيقى بتهوفن وهو يتابع إيقاع النغم وتواليه ، ويتأثر بتحولاته وتصويره ، ينزل إلى ظلام أغواره ، ويرتفع إلى أضواء قناته . . . بتهوفن هو اليوجى الغربى . ذلكم هو سر سيطرة موسيقاه على الناس فى كل زمان ومكان . »

O Freunde, nicht diese Toene ! sondern last uns angenehmere Anstimmen und freundvollere !

Freude ! Freude ! Freude, schoener Goetterfunken, Tochter aus Elysium !

يا جذوة الفرح ، يا بنت وادى الهناء ! أيها القبس الالهى الجميل !

هذا هو مطلع أود (قصيدة) شيلر « الفرح » التى ختم بتهوفن بتلحينها آخر سمفونياته . وكان الفرح والتعبير عن الفرح أجلى آمال بتهوفن منذ أيامه الأولى فى مسقط رأسه على ضفاف الراين . وها هو ذا بعد أن حطمته الحياة وطحنته الآلام ، وقضى المرض على سمعه ، وهدت الأوصاب من بنيته القوية ، يضيف الصوت الآدمى إلى السمفونية لأول مرة فى تاريخ الوسيقى . كان لم يكفه ما تخطاه طول حياته من أوضاع فى السوناتة والكونشرتو والرباعية والسمفونية ! هذا هو يلحن القصيدة لرباعى الأصوات ، ويداولها بين الرباعى والخورس حتى آخر السمفونية التاسعة . وفى ذلك يقول رومان رولان :

« عند ما يحين دخول لحن الفرح لأول مرة فى السمفونية ، يتوقف الأوركستر فجأة فيعم السكون ، مما يطبع دخول اللحن بطابع السر الالهى . أجل ! إن هذا اللحن إله يهبط من سمائه متزملا فى أردان علوية . . . يلطف الأحزان بأنغامه الرقيقة ، ويشيع البرء فى القلب المكلوم . يبدأ اللحن هادئا كظيما على صوت القرار ، ثم ينتقل على ضربات المارش إلى بقية أعضاء الخورس ، مشية الجحافل ، كأنه يصرع الآلام فى خطاه الظافرة . ثم يرتفع نشيد التنور

حارا متقطعا كأنه أنفاس بتهوفن وهو يتجول فى الآجام تحت وحى الالهام ، وصوته يرتفع بين الأغصان المتشابكة وقد أصابه مس كأنه الملك لير وسط العاصفة . ثم ينتقل لحن الفرح من ذلك الايقاع الحربى إلى التجلى الدينى والنشوة المقدسة . هذه هى الانسانية تنتفض وترفع الأكف إلى السماء تردد صيحاتها ضراعة إلى الفرح حتى تضمه إلى صدرها . »

ذلكم هو بتهوفن الذى يتمثله بعض بنى قومى ندابا محترفا ، ولعلهم يحسبونه . . . موسيقارا . إنه الفلسفة والشعر والفن اجتمعت فى رجل . قمة من قمم البشرية فى وادى عبقر . هوميروس أو أفلاطون أو شكسبير ، بل الثلاثة معا . الرجل الذى اجتمعت فيه ملكات الشعور الدافق إلى جانب الاحساس الرقيق ، إلى قوة خارقة على التأليف فى عالم النغم معبرا عن إحساساته وأفكاره فى انطلاق وتوازن ووضوح تكاثفت فى تكوين قدرته على الخلق عبقريات الأوائل من سابقيه : يوحنا سبلستيان باخ وهندل وهايدن وموزارت . كما أوسعت تأليفه للأجيال التى تلته ، والعبقريات التى استنارت بنبراس موسيقاه آفاقا جديدة للخلق والابداع .

لودفيج فون بتهوفن ، الذى ولد على ضفاف الراين سنة ١٧٧٠ ، ومات بضواحى فينا سنة ١٨٢٧ ، وعاش شطرا من حياته فاقد القدرة على سماع موسيقاه بأذنه ، وإن كتبها بقلبه ، وسمعها بروحه ، وتخيلها كاملة الأداء فى جنانه .

فلتنصت إليه ونحن واقفون بجدثه ، فى ركن الموسيقيين بمقبرة زمرنج ، خلف النصب العالى الذى أقامه لغروره باشمهندس بلدية فينا . ولتسمع موسيقاه أجيال من أهل الحضارة ؛ لأن الحضارة بغير بتهوفن وإخوانه من أهل الفن والفكر ليست إلا كلمة جوفاء . ولتصم آذان الرافضين والمشعوذين ، نجوم الأزقة وبلاعبى القردة ، فهم يعيشون على هامش البشرية الحقة خشبا مسندة ، مزوقة ملونة ، يحسبون أنهم آدميون متحضرون ، وهم أصغر قدرا من الشعوب البدائية . فهؤلاء على الأقل ليسوا من أدعياء الحضارة .

خفف الوطء أيها الحاج إلى جدث بتهوفن . ما أظن أديم هذه الأرض إلا جديرا بالتهجد والركوع .

حسين فوزى